مجلة
المجمع العلمي العربي

آذار ونيسان سنة ١٩٤٧ شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى سنة ١٣٦٦

كنوز الأجداد

— ٢ —

ابن حزم

(ابو محمد علي ٤٥٦)

كان جده الأعلى أول من أسلم ، وكان مولى يزيد بن أبي سفيان الأموي ، وأصل أهله من فارس وجده الخامس خلف أول من دخل الأندلس من آبائه ، وسكن أول أمره في مَنْت لِيْشم من اقليم الزاوية في عمل أونبه من كورة لَبْلة غرب الأندلس . وكان أبوه قرطبة ووزر للمنصور محمد بن أبي عامر .

ولد علي سنة ٣٨٤ في صر ما عرف فيه الا النعيم والنعم في صباه وتولى النساء تربيته وربي في حجورهن ونشأ بين أيديهن ولم يعرف غيرهن ، ولا جالس الرجال الا وهو في حد الشباب وحين تبقل وجهه ، وهنّ علّمنه القرآن ، وروّينه كثيراً من الأشعار ، ودرّبنه في الخط » فكانت ثقافته أرقى ثقافة يثقفها ابناء العظماء ، وما كانت المظاهر الخلابة التي شاهدها في قصر أبيه لتحول دون رغبته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في التناغي بالعلم والغرام بالأدب وما كان ذاك الثراء ليبطره فيشغل نفسه بما لا يجدي عليه في حياته . وناقش مرة أحد علماء الأندلس فقال له هذا : ان اكثر مطالعاته كانت على سراج الحراس فأجابه عليّ أن أكثر مطالعاته كانت على مناير الذهب والفضة ، يريد أن الغنى أمنع لطلاب العلم من الفقر .

ولما تغلب البربر على قرطبة وعليٌّ في الخامسة عشرة في عمره انتقل أبوه من دورهم المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة الى دارهم القديمة في الجانب الغربي ، ثم انتهب البربر دورهم في الجانب الغربي هذا ونزلوا فيها فخرج عن قرطبة وسكن المَرِيَّة . وقال ابن حزم انهم «شغلوا «بالنكبات وباعتداء ارباب دولة هشام المؤيد ، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والاغرام الفادح والاستتار وأرزمت الفتنة والقت باعها وعمت الناس وخصّتنا» ثم نكبه صاحب المرية بدعوى انه يسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية فاعتقل أشهراً ، ثم أُخرج على جهة التغريب ، ثم صار الى حصن القصر ولقي صاحبه التُّجيبي فأقام عنده شهوراً «في خير دار اقامة وبين خير أهل وجيران» ثم ركب البحر قاصداً بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد وسكن بها وتولى له الوزارة ثم تولاها لهشام المعتمد بالله .

هذه بالاجمال سيرة ابن حزم السياسية الى العقد الثالث من عمره . ولما رأى ما رأى من تقلقل الدول في الأندلس وعزفت نفسه عن أمور «الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الملك» أقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والانتفاع بدروس أجلّ رجال عصره .

نبغ ابن حزم في الأدب والفلسفة والطب والحديث والفقه والتاريخ وكان أصولياً نظاراً كاتباً شاعراً يرتجل الشعر ويبتدهه الخطب ويضع الكتب وكان «أجمعَ أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الاسلام واوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار» «وكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شافعياً أولاً ثم صار ظاهرياً على مذهب داود بن علي بن خلف الاصفهاني ومن قال بقوله من اهل الظاهر ونفاة القياس » وناضل عن مذهبه الجديد فنال منه فقهاء الأندلس ، وكان اكثرهم يميل الى القول بمذهب مالك ولولا ان حال صاحب المرية دون تحاملهم عليه لأوردوه حتفه واكتفوا بأن احرقوا بعض كتبه في احدى ساحات اشبيلية وحرموا النظر فيما كتب ، ولولا ان حمل بعض تلاميذه كتبه الى الشرق لما انتشرت في الآفاق . اما هو فظل على كثرة معانديه يقرأ ويُقرئ ويدرس في بلده حتى مضى لسبيله .

وفي احراق ابن عباد كتبه قال ابن حزم :

فان تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل ان انزل ويدفن في قبري

دعوني من احراق رق وكاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

والا فعودوا في المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون لله من سرّ

ومما عدوه عليه انه كانت « له مجالس مع اولي المذاهب المرفوضة من أهل الاسلام » اي انه كان يجتمع الى غير السواد الأعظم ، وعابوا عليه انه خالف ارسطو في بعض آرائه ، كأن الاجتماع بالمخالف والنقد على صاحب الرأي من الكبائر . والذي ينتقد عليه في الحقيقة انحاؤه على بعض الأئمة ومغالاته في رد كل من خالف مذهبه من فرق الاسلام ، يستعمل لهجة قاسية حتى قالوا انه كان يصك معارضه في علمه صك الجندل وينشقه متلقنه انتشاق الخردل . قالوا وكان مما يزيد في شنآنه تشيعه لأمراء بني أمية ماضيهم وباقيهم بالشرق والأندلس واعتقاد صحة امامتهم وانحرافه عمن سواهم من قريش .

قال عن نفسه معتذراً عما يبدو في كلامه من الشدة على من لم يتبع مذهبه انه كانت به علة شديدة أصابته فولدت عليه ربواً في الطحال شديداً فولّد ذلك عليه من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق أمراً جاشت به نفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال انه انتفع بحكِ اهلِ الجهل منفعة عظيمة وهي انه توقد طبعه واحتدم خاطره وحيي فكره وتهيج نشاطه فكان ذلك سبباً الى تواليف عظيمة النفع ولولا استثارتهم ساكنه واقتداحهم كامنه ما انبعثت لتلك التواليف .

وقال عن نفسه انه جُبل على طبيعتين لا يهنؤه معهما عيش ابداً وهما وفاء لا يشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر ، وعزة نفس لا تقر على الضيم مهتمة لأفل ما يرد عليها من تغير المعارف مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو الى نفسها وقال واني لأُجفى فاحتمل وأستعمل الأناة الطويله والتلوّم الذي لا يكاد يطيقه أحد ، فاذا أفرط الأمر وحميت نفسي تصبرت وفي القلب ما فيه .

وقال غاظني أهل الجهل مرتين من عمري احداهما بكلامهم فيما لا يحسنونه ايام جهلي ، والثانية بسكوتهم عن الكلام بحضرتي ، فهم ابداً ساكتون عما ينفعهم ناطقون فيما يضرهم . وسرّني اهل العلم مرتين من عمري احداهما بتعليمي ايام جهلي والثانية بمذاكرتي ايام علمي .

كان ابن حزم يعرف كيف يحاج المخالفين له ويبذهم ، لأنه كان أرقى منهم كما ظهر ، مع ما أُوتيه من بلاغة اللسان وبلاغة القلم ، وحضور الذهن ، ووفرة المادة ، وشدة الاخلاص والصدق ، ولما ضاق به مخالفوه ذرعاً لجأوا الى السلطان فما استطاعوا ان يذلوه وهو العزيز ولا ان ينتقصوه وهو الكامل ، ولا ان يجهّلوه وهو العالم وكيف يصلون الى غاياتهم منه وهو الذي انتشرت في الأقطار كتبه في حياته وما وسع حتى اعداؤه في رأيه ان ينكروا فضله العظيم .

ألف تآليف كثيرة بلغت نحو أربعمائة مصنف تدخل في ثمانين الف ورقة فكان اكثر علماء الاسلام تآليف بعد ابن جرير الطبري .

وانت ايها القاريء العزيز اذا احببت ان تقرأ نمطاً عجيباً من رد ابن حزم على مخالفيه وكيف يزيف اقوالهم ويشتد في حوارهم طالع « الفصل في الملل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والأهواء والنحل» واذا شئت ان تطلع على الحكم فيما اختلف فيه الناس من أصول الأحكام في الدين فطالع كتابه الجامع «لإحكام في أصول الأحكام» واذا سمت بك همتك الى التبحر في الحجاج ومعرفة الاختلاف وتصحيح الدلائل المؤدية الى معرفة الحق مما تنازع الناس فيه ، والاشراف على احكام القرآن والوقوف على جمهرة السنن الثابتة عن رسول الله وتمييزها مما لم يصح والوقوف على الثقات من رواة الأخبار وتمييزهم من غيرهم والتنبيه على فساد القياس وتناقضه وتناقض القائلين به فليكن تصفحك لكتابه «المحلّى» واذا جنحت الى تعرف حكمة العشق يطلعك بمجالس في الحب وعلم النفس على تحليل ارواح النساء والرجال وكشف اسرار الجنسين . وفي كل أولئك تدرك مبلغ ابن حزم من حرية القول وبعد التفكير وتتبين درجة أدبه على ما لا يخطر ببالك صدور مثله عن مثله فاقرأ كتابه البارع «طوق الحمامة في الألفة والأُلاف» يثبت لك من هذا ان ابن حزم لا يقول بالتقية وهو القائل : «ولا انسك نسكاً أعجمياً ، ومن أدى الفرائض المأمور بها واجتنب المحارم المنهي عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الاحسان ، ودعني مما سوى ذلك» ، ومن أحب ان يقرأ فلسفته في الأخلاق وما يصلح الجماعات والمجتمعات فليقرأ كتابه «مداواة النفوس» وهذا كتاب كله زبدة يجزئ قارئه عن كثير مما كتب في موضوعه ويبين درجته من الحكمة .

ذاك بعض كتبه التي تخطتها حملات خصومه فسلمت وانك لتقرأ اسناده في الشريعة فتدهش لما ترى من احاطته بأطراف كل موضوع خاض عبابه كأن مسائل الدين صفحة واحدة ماثلة امام عينه استظهرها في الصغر واستخرج ايام نضج عقله وعلمه كل ما فيها من دقائق الحقائق . فكان بهذا حقاً من أعظم علماء الاسلام لم يجئ في بابه بضعة رجال من عياره .

ابن حزم إمام في كل شأن في الدين والحكمة والأخلاق والأدب والتاريخ وفي كل ما اتقن من علم وتمثله وألف فيه . فهو جد عظيم يملك عليك نفسك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وانت تنظر فيما شرح او بسط وحاور وجادل ، يتعاظمك بسلطان علمه فتكبره وتكبر أدبه ، ويعجبك بشدة غيرته على بث دعوته ، ويسوءك ان يسيء اليه معاصروه وهو الذي كان كله احساناً . ومن « طوق الحمامة » تعرف اي اديب هو ومن « المحلى » تدرك اي عالم ديني هو وتنادي لا تبالي هكذا فليكن العلماء . ناهيك من رجل بنشأ على الفضائل الموهوبة والمكسوبة ولم يلهه ترف القصور عن الاستغراق في معالجة صعاب المسائل . ولما علم تقصيره في بعض الفروع الشرعية وهو في نحو الثلاثين من عمره عاد فقعد مقعد المتعلم بين ايدي العلماء يحصل ما فاته وما برح يتلقى عن الشيوخ حتى بلغ درجة الاجتهاد وأعظم بها من مرتبة لا ينالها في قطره وعصره الا من استحقها الاستحقاق كله ، خصوصاً وهو بين ظهراني خصماء غير رحماء واعداء اردياء ، يحسدونه على نعمته ونعمة آبائه وعلى علمه وعلى مكانته ورجاحته .

ابن حبّان البستي

(ابو حاتم محمد ٣٥٤)

عربيٌّ اتصل نسبه بالياس بن مضر نشأ في بُست مدينة بين سجستان وغزنين وهراة لا يعرف عن نشأته الا ما قالوه من أنه كان مكثراً من الحديث بالرحلة والشيوخ وانه سمع الحديث من خلائق في خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر والجزيرة وغيرها وقال في بعض كتبه : ولعلنا كتبنا عن الف شيخ ما بين الشاش والاسكندرية .

ولي قضاء سمرقند ثم قضاء نسا وغيرها ثم صرف من القضاء بدعوى انه زعم ان النبوات علم وعمل وانه صنف لأبي الطيب المصعبي كتاباً في القرامطة . وقال بعضهم ان له أوهاماً أُنكرت عليه وأنه طُعن عليه بهفوة منه بدرت ولها محل لو قيلت . وقيل ان الخليفة قتله بدعوى انه يعرف بعض العلوم الرياضية وهو في الثمانين من عمره ! وقيل مات حتف أنفه . والأرجح ان كتابه في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القرامطة حمل افكاراً لا يرضاها السلطان فنقموا منه ما كتب ، فكان مقتله سياسياً .

كان البستي عالماً بالمتون والأسانيد أخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره ، وصحيحه فيه أصحُّ من سنن ابن ماجة وكانت الرحلة بخراسان الى مصنفاته لأنه أدرك الأئمة والعلماء والأسانيد العالية وكان وعاءً من أوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ ، عارفاً بالطب والنجوم والكلام ، عاقلاً المعياً وكاتباً لوذعياً .

وذكر العارفون ان من الكتب التي تكثر منافعها ان كانت على قدر ما ترجمها به واصفوها مصنفات ابي حاتم وهي في الحديث ومناقب الأئمة ، والعلوم وأنواعها ، والهداية الى علم السنن . وقد سبَّلها ووقفها وجمعها في دار رسمها بها جعلها لأصحابه ، وبنى مسكناً للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة وجعل لهم جرايات يستنفقونها دارّةً . وأوصى وصيّه ان يبذل كتبه لمن يريد نسخ شيء منها من غير أن يخرجها من دارها . وتشتت كتبه مع « تطاول الزمان وضعف السلطان واستيلاء ذوي العيث والفساد على تلك البلاد وجهل اهلها ، فلم تعاوَر بالنسخ » ضاع أصلها ولم يكثر فرعها .

لم نعرف ان كان طبع لابن حبان شيء من كتبه المحررة في العلم الذي اشتهر به في القاصية والدانية ، وغاية ما طبع له كتاب « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » وهو كتاب بديع قسمه الى زهاء خمسين مطلباً ، ابتدأ كل مطلب بحديث وأتبعه بما قصد بيانه ، ووشاه بشواهد كثيرة من الشعر وغيره ، بحيث يستفيد منه الكبير والصغير ، ويتأدب به الأمير والأجير ويغني غناءه في تربية الرجال والنساء ، ببيان معجب وتنسيق جاءت معه فصوله ذات حجم واحد متوازية الفائدة آخذة من الحسن والاحسان بأوفر نصيب .

ابن حبان ينقل الشعر والنثر بالرواية على أصول المحدثين ومنظومه طبقة يتنافس فيها ، ثم يأتي من عنده بكلام يدل على بعد غوره ولطف ادائه ، وقد يورد في بعض الفصول قصصاً تروق وتعلّم ، ويخاطب العقل وما يجدر بصاحبه عمله « لأن من جاوز الغاية في كل شيء صار الى النقص ، ولا ينفع العقل الا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالاستعمال كما لا تنفع الأعوان الا عند الفرصة ، ولا ينفع الرأي الا بالانتحال كما لا تتم الفرصة إلا بحضور الأعوان » .

قال أنشدني عبد الرحمن بن محمد المقاتلي :

فمن كان ذا عقل ولم يك ذا غنى يكون كذي رجل وليست له نعل

ومن كان ذا مال ولم يك ذا حجى يكون كذي نعل وليست له رجل

ومما حكاه قال : سمعت اسحق بن احمد القطان البغدادي بتستر يقول : كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء كان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم ، فقال لي : دخلت يوماً على احمد بن حنبل فاذا هو مغموم مكروب فقلت : مالك يا أباعبد الله . قال : خير . قلت ومع الخير ، قال : امتحنت بتلك المحنة حتى ضربت ثم عالجوني وبرأت ، إلا أنه بقي في صلبي موضع يوجعني ، هو أشد عليَّ من ذلك الضرب . قال : قلت اكشف لي عن صلبك : قال : فكشف لي فلم أر فيه إلا أثر الضرب فقط . فقلت : ليس لي بذي معرفة ، ولكن سأستخبر عن هذا . قال : فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس ، وكان بيني وبينه فضل معرفة ، فقلت له : أدخل الحبس في حاجة قال : ادخل . فدخلت وجمعت فتيانهم ، وكان معي دريهمات فرقتها عليهم ، وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بي . ثم قلت : من منكم ضرب أكثر ؟ قال : فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضرباً وأشدهم صبراً . قال : فقلت له : أسألك عن شيء قال : هات . فقلت : شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم وضرب على الجوع للقتل سياطاً يسيرة ، إلا أنه لم يمت ، وعالجوه وبرأ ، الا أن موضعاً في صلبه يوجعه وجعاً ليس له عليه صبر . قال : فضحك ، فقلت : مالك ؟ قال الذي عالجه كان حائكاً . قلت : ايش الخبر ؟ قال : ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها قلت : فما الحيلة ؟ قال : يُبطُّ صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويُرمى بها ، وإن تركت بلغت الى فؤاده فقتلته . قال : فخرجت من الحبس فدخلت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على احمد بن حنبل فوجدته على حالته ، فقصصت عليه القصة قال : ومن يبطه ؟ قلت : أنا ، قال : أوتفعل ؟ قلت : نعم قال : فقام ودخل البيت ثم خرج وبيده مخدتان وعلى كتفه فوطة فوضع احداهما لي والأخرى له ثم قعد عليها وقال : استخر الله فكشفت الفوطة عن صلبه وقلت : أرني موضع الوجع قال : ضع اصبعك عليه فاني أخبرك به ، فوضعت اصبعي وقلت : ها هنا موضع الوجع ؟ قال : ههنا احمد الله على العافية . فقلت : ههنا قال : هاهنا احمد الله على العافية . فقلت ها هنا قال : ها هنا اسأل الله العافية . قال : فعلمت انه موضع الوجع ، قال : فوضعت المبضع عليه فلما أحس بحرارة المبضع وضع يده على رأسه وجعل يقول : اللهم اغفر للمعتصم ، حتى بططته . فأخذت القطعة الميتة ورميت بها وشددت العصابة عليه ، وهو لا يزيد على قوله : اللهم اغفر للمعتصم . قال : ثم هدأ وسكن ثم قال : كأني كنت معلقاً فأحدرت . قلت : يا أبا عبد الله ان الناس اذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم ورأيتك تدعو للمعتصم . قال اني فكرت فيما تقول ، وهو ابن عم رسول الله ﷺ فكرهت آتي يوم القيامة وبيني وبين احد من قرابته خصومة ، وهو مني في حلّ .

ومن حكاياته ، وحكاياته على الأغلب ذات مغزى سياسي واجتماعي : انبأنا محمد بن صالح الطبري بالصَّيْمَرة حدثنا محمد بن عثمان العجلي قال : لما حدث شريك بحديث الأعمش عن سالم بن ثوبان أن النبي ﷺ قال : « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فاذا خالفوكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم ، فان لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء » . سُعي به الى المهدي فبعث الى شريك فأتاه ، فقال : حدثت بها قال : نعم قال : عمن رويتها قلت : عن الأعمش قال : ويلي عليه لو عرفت مكان قبره لأخرجته فأحرقته بالنار . قلت : انه كان مأموناً على ما يروى . قال : يا زنديق لأقتلنك . قلت : الزنديق من يشرب الخمر ويسفك الدم . قال : والله لأقتلنك قلت : أو يكفي الله . قال : فخرجنا من عنده فاستقباني الفضل بن الربيع فقال : ليس لك موضع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تهرب اليه ؟ قلت : بلى ، قال : فانه أمر بقتلك قال : فخرجت الى جبّل . وخرجت يوماً أتجسس الخبر فأقبل ملاح من بغداد فاستقبله ملاح آخر من البصرة ، فسأله ما الخبر ؟ قال : مات أمير المؤمنين . قلت : يا ملاح قرّب ، فقرّب . وفي هذه القصة اشارة الى ظلم العباسيين وفي أقل منها كانوا يستبيحون اهلاك الناس ولذلك ما كان ابن حبان من المرضي عنهم في بلاط بغداد على ما يظهر . وما أغناه انطوؤه على علم غزير وخير كثير . أفاد الأمة من كل وجوه الاستفادة فما نال منها الا كفر ما أسدى وغمط ما اجدى .

الراغب الاصفهاني

(الحسين بن محمد مات سنة ٣٩٩ وقيل ٤٠٢)

لاتصال العلماء والأدباء برجال السلطان وتصرفهم لهم في القضاء والعمالات او تقربهم منهم بالمنادمة والتأديب والشعر دخل كبير في استفاضة شهرتهم وتناقل آرائهم وتآليفهم . وكم من عظيم لم يتول قضاء ولا عملاً للدولة بقي على خمول لا يكاد يشعر به ولا يعرفه غير بعض ابناء حيّه ومنهم على مايظهر الراغب الاصفهاني .

لم يترجم له حتى اصحاب الطبقات من أهل مذهبه وغاية ما اتصل بنا من أخباره انه كان صاحب لغة وعربية وحديث وشعر وكتابة وأخلاق وحكمة وانه عارف بعلوم الأوائل وغير ذلك وانه كان مقبولاً عند الخاصة والعامة ومن أئمة السنة شافعي المذهب وقرنوه بالغزالي وقيل ان الغزالي كان يستصحب كتابه الذريعة ويستحسنه لنفاسته وان القاضي البيضاوي اعتمد على كتابه مفردات الراغب في التفسير .

أما اين قرأ الراغب وعمن اخذ ، وكيف نبغ وكيف نفع الى غير ذلك من خصائصه وحليته ورحلته فلم نقف على شيء منه يبل الغلة وكانت اصفهان في أيامه ، عش العلماء والأئمة على ما كانت نيسابور ، لم تخرج مدينة من المدن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في فارس أمثالهم في كل فن ولا سيما الحديث وحفاظه على أننا لا نعرف ان كان الراغب نشأ في تلك المدينة الجميلة ام انها موطن أسرته وهو عاش في مدينة أخرى من فارس .

وكأن لسان الحال نادى من غفلوا أو تغافلوا عن التنويه به في كتبهم : انكم يا هؤلاء اذا اهملتموني فالقدرة تعلقت بأن تناقل الناس كتبي وانتفعوا بها في مختلف الأعصار والأقطار . وهل يستغني طالب الوقوف على اسرار التنزيل عن الأخذ من كتابه « المفردات في غريب القرآن » وقد شاع بين الناس باسم « مفردات الراغب » ؟ وهل تسد حاجة المتفقه بغير كتابه « الذريعة الى مكارم الشريعة » اذا أراد الجمع بين احكام الشرع ومكارمه علماً وعملاً ؟ وهل يتم أدب المتأدب اذا لم يأخذ من كتابه « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء » الذي أطلق عليه الناس اسم « محاورات الراغب » تخفيفاً فاقترن باسمه على الدهر ؟ وهل المتعلم في غنية عن مدارسة كتابه « تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين » .

الراغب لا يتكلم عن نفسه ، بل ينقل في العلم والأدب — اللهم اذا حكمنا عليه بما بقي لنا من ممتع تراثه هذا ، وهو الكتب الأربعة السابقة — كلام من تقدمه ويضع الدساتير ويخط الخطط ، وقد امتاز بأن العقل يتجلى في سطور ، فهو من أعظم العلماء الذين يحسنون استخراج الآي من القرآن ويوردونه عند الاقتضاء دليلاً على ما يريدون الافاضة فيه . ومن اعظم من طبقوا الحكمة اي علم العقل على الشرع كما امتاز بتنسيق فصول كتبه وسهولة عبارتها مع بلاغتها واقتصاره في تقريره على ما يجب ان يبقى في الذهن ولا تعافه النفس لطوله ولفه ودورانه .

يقول لك الراغب في المفردات « ان اول ما يحتاج ان يُشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة فتحصيل معاني مفردات الفاظ القرآن في كونه من اوائل المعاون لمن يريد ان يدرك معانيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كتحصيل اللَّبن في كونه من ادل المعاون في بناء ما يريد ان يبنيه وليس ذلك نافعاً في علوم القرآن فقط بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمهم واليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم ... »

ويقول لك في الذريعة انه باكتساب المكرمة يستحق الانسان ان يوصف بكونه خليفة الله تعالى المعنيّ بقوله تعالى اني جاعل في الأرض خليفة ، وبقوله تعالى ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون وبقوله تعالى وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم . وان خلافة الله عز وجل لا تصحُّ إلا بطهارة النفس كما ان اشرف العبادات لا تصح الا بطهارة الجسم .

ويقول لك في تفصيل النشأتين ان العقل ان يهتدي الا بالشرع والشرع لا يتبين الا بالعقل فالعقل كالأُس والشرع كالبناء ولن يغني أُس ما لم يكن بناء ولن يثبت بناء ما لم يكن أُس . وأيضاً فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر ولهذا قال الله تعالى لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه . وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده فان لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت قال الله تعالى « الله نور السموات والأرض مثَل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء » والله هو الهادي وأيضاً فالشرع عقل من خارج العقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

متحدان ولكون الشرع عقلاً من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله : صم بكم عمي فهم لا يعقلون ، ولكون العقل شرعاً من داخل قال في وصف العقل « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » فسمّى العقل ديناً ولكونهما متحدين قال « نور على نور » اي نور الشرع ونور العقل ثم قال يهدي الله لنوره من يشاء . فجعلهما نوراً واحداً فالشرع اذا فقد العقل عجز عن أكثر الأمور عجز العين عند فقد الشعاع » .

بينا يقول لك هذا اذا به في محاضراته اديب لا يتورع عن نقل كل ما ندعوه بالأدب الواقع أو المكشوف في جملة ما ينقل من فرائد الشعر ويتيمات النثر هو هناك اديب على أكمل وجه عرف به اديب ويقول « ومن لا يتحلى في مجلس اللهو الا بمعرفة اللغة والنحو كان من الحصر صورة ممثلة أو بهيمة مهملة ومن لا يتبع طرفاً من الفضائل المخلدة من ألسنة الأوائل كان ناقص العقل . ويبدأ كتابه بباب العقل والعلم . فهو معلم صادق في كل ما كتب لا يحب التزمت ويبعد عن التقية ويلقنك ما يعتقد صحته وفصاحته بدون مواربة .

كتب كتابه هذا لأمير من أولئك الأمراء على ما يظهر وخاطبه بسيدنا عمر الله بمكانه مرابع الكرم ليجعل هذه المحاضرات « صيقل الفهم ومادة العلم » لأنه كان ممن سلك في زمانه طريقاً قلّ سالكوه جعل مراعاة الأدب شعاره ودثاره » .

هذه نتفة من سيرة عظيم الشرع ونابغة العقل ولم نعرفه إلا كما عرفنا اكثر العلماء ، مثلوهم لأعيننا كباراً من أول يوم وما وقفوا على بيوتهم ونشأتهم ودراستهم وشيوخهم ومعاشهم وصفاتهم وما وقع لهم من الأحداث في حياتهم مما كانوا لا يرون فيه كبير أمر وممن لا تتصور الرجال الا به .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net